مجلة
دراسات إنسانية

تصدرعن جامعة مستغانم
ISSN: 2437-119X

العـدد: 03 (2017)، ص ص117- 154

عادات وطقوس استقبال الربيع: الكسابة عادة من التراث الشعبي بمستغانم

د. كريمة علاق*[1]، أ. مناد سميرة[2]،

[1] أستاذة باحثة، قسم علم النفس، جامعة مستغانم، الجزائر

[2] أستاذة باحثة، قسم علم الإجتماع، جامعة مستغانم، الجزائر

تاريخ الاستلام: 2017/07/10 تاريخ النشر: 2017/12/20

الملخص:

الكسابة معتقد شعبي ارتبط بمحيط الولي الصالح سيدي المجدوب، تقصده كل امرأة تأخر زواجها في الواحد والعشرين من مارس من كل سنة، تناسبا مع أول يوم من أيام الربيع، ونادرا ما تكون مرفقة برجل من العائلة لأن الزيارة تتم بتخطيط من امرأة سواء الأم أو الجدة أو الفتاة نفسها، دون علم الأب أو قد يكون على علم بالأمر ويضطر للقبول لاعتقاده أن ذلك في مصلحة البنت. ولعل ما شجع مثل هذه المعتقدات هو نوع الخطاب المصاحب لهذه الممارسات، والذي كونته النساء ليكون أحد المبررات عن سبب تأخر زواج الفتاة بـ"التعطيل" بدل إرجاعه الى أسباب موضوعية، وأن "الكسابة" هي من ستحقق الحلم المرغوب،المهم هو العزم والنية. يحدث هذا بالرغم من انتشار مظاهر الحداثة والعقلانية المتزايد الذي حد على الكثير من الطقوس، إلا أنه بقيت بعض المعتقدا ت تتوفر على دعم اجتماعي من طرف فئات اجتماعية تؤمن بفعالية دور" الكسابة"، كالنساء الراغبات في الزواج ليصل الأمر إلى النساء العاقرات أو إلى تلك التي تطمح إلى تحقيق أهداف معينة كالعمل وحتى السكن.

الكلمات الفتاحية: العادات؛ الطقوس؛ الكسابة؛ التراث الشعبي؛ مستغانم.

Abstract:

Al-Kasaba is a popular belief that was associated with the environment of the good guardian, Sidi Al-Majdoub. It is intended for every woman whose marriage was delayed on the twenty-first of March of each year, in proportion to the first day of spring, and it is rarely accompanied by a man from the family because the visit is planned by a woman, whether the mother, grandmother, or The girl herself, without the father's knowledge or he may be aware of the matter and he is forced to accept because he believes that this is in the interest of the girl. Perhaps what encouraged such

* **كريمة علاق**، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة مستغانم، الجزائر Gazelle_allegue@yahoo.fr

beliefs is the type of discourse accompanying these practices, which women formed to be one of the justifications for the reason for delaying the girl's marriage by "disruption" instead of returning it to objective reasons, and that "Al-Kasaba" is the one who will achieve the desired dream, the important thing is determination and intention. This happens despite the spread of modernity and the increasing rationality that limited many rituals, but some beliefs still have social support on the part of social groups that believe in the effectiveness of the role of " Al-Kasaba ", such as women wishing to marry to reach barren women or those who aspire To achieve certain goals such as work and even housing.

Keywords: habits; rituals; Al-Kasaba; folklore; Mostaganem.

1. مقدمة:

قبل البدء في عرض بحثنا، نود أن ننوه فقط بأن هذه الدراسة قد تصطدم بمنظومة من المعتقدات الدينية التي تعتبر أن البحث في هذا النوع من المعتقدات والعادات من سبيل التشهير بالشعوذة وطقوس السحر وغيرها، ذلك أن هذه العادة التي نحن بصدد البحث فيها، كثيرا ما صنفت في إطار الشعوذة والسحر، غير أننا لا نهدف من بحثنا هذا بأي شكل من الأشكال إلى التأثير في معتقدات الأفراد أو تشجيعها أو نبذها، بل هي دراسة علمية بحتة نحاول من خلالها الكشف والتعريف بالمخزون التراثي الثقافي لمجتمعنا والذي يعترف الكثير من الباحثين الجزائريين في مختلف التخصصات أننا نجهله ونهمله أحيانا، غير أنه رغم جهلنا وإهمالنا له فهو مستمر في الوجود، إلى جانب إلقاء الضوء على الفعل الثقافي لدى فئة من المجتمع في مستغانم . ونحاول استقراء رؤاهم وقناعتهم حول بعض القضايا المرتبطة بالحقل الثقافي الجزائري، والمخيال الشعبي ونحاول معرفة تصوراتهم لبعض المعتقدات الشعبية، التي تنتمي إلى مجال اللامعقول وفيما يتّصل بالثقافة الشعبية للمبحوثين.

2. إشكالية البحث:

تندرج الأسطورة كعنصر من عناصر الثقافة الشعبية ضمن الفنون الشعبية والشفوية بصفة متميزة، لأنها تنتقل من وسط اجتماعي إلى آخر، عن طريق الذاكرة الجماعية لتشكل جزءا من الثقافة العامة التي تعبر عن المجتمع وبنيته أكثر من غيرها من الأشكال، لما تحويه من معتقدات وحوادث قريبة من حياة الأفراد، فهي تعتبر فكرا بشريا مرت عبره بمراحل مختلفة في تشكيله و استنبطت من كل التأملات و التخمينات التي نشأت من العقل الإنساني عبر العصور تماشيا بطبيعة الحال مع وسائل العمل في كل فترة.

ومن الطبيعي أن تختلف العادات والتقاليد باختلاف المناطق والبيئات، فيختلف الشرق عن الغرب والشمال عن الجنوب في العادات والتقاليد غير أنهم يتفقون كثيرا في المعتقدات.

فالعائلات الجزائرية مثلا وعلى غرار عائلات في الوطن العربي تودع فصل الشتاء لتستقبل فصل الربيع، غير أن طريقة الاستقبال هذه تختلف من منطقة إلى أخرى، ففي 28 فبراير من كل سنة يستقبل سكان سطيف وشرق بجاية بعادات متوارثة أبا عن جد، حيث يتم قطف نبتة " الدرياس" والمعروفة بالقبائلية ب"أذرغيس" في يوم 27 من فبراير قبل غروب الشمس، وتترك طول الليل فوق سطح البيت بما يسمى بالعامية تترك " للنجوم"، وفي فجر اليوم الموالي توضع جذور النبتة مع حبات البيض في الماء المعد لإعداد لتفوار الكسكس الذي يعد بزيت الزيتون ويقدم بالبيض المسلوق فقط، أي يحضر دون مرق ليؤكل قبل طلوع الفجر، ويستحسن أكله في فطور الصباح دون شرب الماء بعده لعدة ساعات على الأقل ساعتين، لأنه يشاع عن هذا الطعام أنه غذاء ودواء وبركة في آن واحد مفيد جدا للجسم خاصة أمراض الروماتيزم والمفاصل، وفي الصباح تعد ربات البيوت خبز الدار المعروف بشكله الدائري ورسوماته المبهرة حيث يطلى بصفار البيض ليتباهى بها الأطفال .

ويشترك أهالي منطقة برج بوعريريج كما في مناطق أخرى من الشرق الجزائري كباتنة وخنشلة...إلخ في نفس العادات ،فيتم توديع فصل الشتاء واستقبال الربيع في شهر مارس

من كل عام وتحديدا في اليوم الواحد والعشرين (21) بالخروج إلى الحقول والمنتزهات والغابات صباحا ولا يعودون إلا بعد العصر، حاملين معهم قففهم المعبأة بحلوة "البراج " أو "المبرجة" كما يحلو للبعض تسميتها- وهي معدة بالسميد ومعجون التمر والزيت وتقطع إلى قطع على شكل معين بأضلاع متساوية- كعادة للترحاب بقدوم فصل الربيع، حيث يتبادلها الجيران بينهم ويترك حق الشخص الغائب أو العروس التي لم يتم استقدامها بعد، ويسمى عند أهل البرج ب "شاو الربيع" و تعني بالقبائلية "بداية الربيع"، ويردد الكبير والصغير أغنية استقبال الربيع التي تعتبر فلل خير على كل من يغنيها، إذ تقول الأغنية:

شاو الربيع الربعاني *** كل عام تلقاني *** في الفيلاج الفوقاني

ويفسر الكبار هذه الأغنية على أن المقطع الأول منها يعني بداية الربيع التي يخرج فيها الأهالي إلى الحقول وربوات المنتزهات للتربع، أي الجلوس على الأرض المعشوشبة الخضراء للتنزه والأكل والشرب، ويعني المقطع الثاني أن كل من يغني هذه الأغنية فسوف يستقبل ربيع كل سنة في منطقة عالية، للدلالة على الرفعة والتقدم التي يحصل عليه مردد الأغنية.

كما يستقبل سكان الجنوب على غرار الواد وبسكرة بتحضير أطباق الشخشوخة والكسكس، غير أننا لم نجد في بحثنا في الجانب النظري على تفصيلات ولا بحوث عن مثل هذه العادات في الغرب الجزائري، لكننا وجدنا أن هناك تشابه في العادات بين طريقة استقبال الربيع في الشرق الجزائري وتلك الموجودة في مصر والتي تعرف "بشم النسيم" ويعرف باللغة القبطية ب" شُوْمْ إنّسِم"، وهو واحد من أعياد مصر الفرعونية، وترجع بداية الاحتفال به إلى ما يقرب من خمسة آلاف عام، أي نحو عام (2700 ق.م)، وبالتحديد إلى أواخر الأسرة الثالثة الفرعونية ويحتفل به الشعب المصري حتي الآن. ويتحول الاحتفال بعيد "شم النسيم" – مع إشراقة شمس اليوم الجديد - إلى مهرجان شعبي، تشترك فيه طوائف الشعب المختلفة، فيخرج الناس إلى الحدائق والحقول والمتنزهات، حاملين معهم أنواع معينة من الأطعمة، حيث لا يؤكل إلا الخضر النيئة وغير المطبوخة ، كما يحتفل الصينيون بهذا اليوم ايضا وكذا بعض القرى في تونس والمغرب..

ووجدنا أيضا تطابقا بين عادة استقبال الربيع في الشرق الجزائري و تلك التي تصادف عيد نوروز (21 مارس) العيد القومي لدى الشعب الإيراني، الذي يعد رأس السنة الفارسية (الهجري الشمسي)، وهو يوم الاعتدال الربيعي، حيث تعطل كل الجهات الحكومية والأهلية في إيران اعتبارا من 20 اذار لمدة خمسة أيام والمدارس والجامعات لمدة أربعة عشر يوم. ويعني هذا العيد باللغة الفارسية: "اليوم الجديد"، وهو يجسد على بساطة لفظه مدلول "التجدد" بمعناه الواسع المطلق، إذ زيادة عن كونه العيد الرسمي لرأس السنة، فانه اليوم الأول من أول شهور السنة الفارسية، ويصادف حلوله حدوث الاعتدال الربيعي (21مارس) والملاحظ أن عيد النوروز يتعدى حدود إيران الجغرافية إلى العراق وتركيا وسورية، حتى شعوب منطقة أسيا الوسطى مرورا بأفغانستان..

غير أن للمجتمع المستغانمي طريقته الخاصة في استقبال الربيع، تنحصر على فئة النساء فقط، إذ تقوم الكبيرات في السن من الجدات والأمهات ممن بقيت في أسرهن بنات عازبات إلى التوجه فجر كل يوم من الحادي والعشرين من مارس (21 مارس) إلى محيط ضريح الولي الصالح سيدي المجدوب لتقوم بقطف نبتة صغيرة ذات لون أصفر- تشبه زهرة الياسمين الأصفر لكنها أصغر منها بكثير، ولها سيقان رقيقة ، وليست ذات رائحة واضحة وعابقة، أما نبتتها فليست كبيرة الانتشار، وقد يصل ارتفاعها إلى 40سم، تزهر في الشهر الثالث من كل عام- بخاتم من ذهب يكون ملكا للبنت المقصودة بنية الزواج، تحملها الجدة لتنزل بعدها إلى شاطئ سيدي المجدوب وبالضبط عند مكان يعرفه سكان مستغانم "بالقلتة" وهي مكان محيط بالصخور، لتبدأ في التوغل إليه، و طبعا لا يمكنها ألا تتبلل بفضل عمل الأمواج من مد و جزر، حتى تصل إلى منطقة أكثر صخورا على شكل شبه مغارة، متآكلة بفعل الأمواج لتقوم بإشعال الشموع ورمي الحناء والسكر مع التمني بزواج البنت المقصودة،لتطلق أثناءها زغاريد الفأل الحسن، ثم تعود إلى اليابسة بعد وضع النبتة في القطن مع التمر والحناء ليحتفظ بها في جهاز الفتاة العزباء أو في صندوق الذهب حتى يدور عليه الحول، إما بزواج الفتاة في تلك السنة أو بالعودة بنية أخرى وهي الإنجاب للتي

تزوجت في السنة الفائتة، والكل يجمع أن كل من قام بقطف الكسابة إلا وتحققت أمانيه، فمن خلال ما سبق تتبادر إلى أذهاننا التساؤلات التالية:

- ما هو تصوّر طقس الكسابة في نظر المجتمع المستغانمي من حيث فعاليتها وتحكمها في الواقع المعاش؟
- ما هي انعكاساتها على الواقع الاجتماعي المعاش؟
- هل حقيقة أن الكسابة لها دور في تصريف لكلّ أشكال الفشل التي تصيب الأفراد؟
- ما هي الوسائل و الطقوس المرافقة لعادة الكسابة ؟

3- أهداف البحث:

و من أهمها:

- جمع التراث الشعبي الخاص بالمجتمع المستغانمي قبل أن يمحى من الذاكرة قصد الحفاظ عليه .
- الكشف عن الهوية الثقافية و الانثروبولوجية للمجتمع المستغانمي.
- التعرف على التغير الاجتماعي الذي طرأ على هذا التراث.
- عادة الكسابة عادة لم تحض بأي دراسة علمية جادة ولذا نهدف الى جمع معلومات عن هذه العادة قصد معرفتها وتشجيع الباحثين للخوض في مثل هذه المواضيع.
- لاحظنا في السنوات الأخيرة تأثير تكنولوجيا لاتصال و الإعلام على التراث الشعبي الجزائري ومحاولة فرض قيم جديدة على الشباب والمتعلمين في محاولة لابعادهم عن تراثهم وثقافتهم المحلية ولهذا نهدف للفت انتباههم لبعض عناصر تراثهم الاجتماعي التي قد تكون مجهولة تماما عند بعضهم .

4- منهجية البحث:

ولعل المنهج الذي يتناسب ودراستنا هو "المنهج الإثنولوجي" الذي يقوم على تحليل الظاهرة الموصوفة ودراستها، ثم استنتاج الأحكام التي تبين قيمتها، وهذا بالإعتماد على المنهج الوصفي: الذي يتناسب وطبيعة دراستنا، "لأنه يعتمد على وصف الظواهر وصفا دقيقا من كل الزوايا ويسعى لجمع بيانات من أفراد المجتمع لمحاولة تحديد الحالة الراهنة للمجتمع في متغير واحد أو متغيرات وهو يقوم على حقائق مرتبطة".(اللحلح ومصطفى، 2002، ص 54).

5- أدوات البحث:

يعتمد كل باحث على جملة من الأدوات التي تتلاءم ومنهج بحثه، تكون أكثر فعالية لاستنباط المعلومات وتحليل النتائج التي يتوصل إليها، وقد وجدنا أنفسنا نستخدم أكثر من أداة فرضها علينا منهج الدراسة الإثنولوجية من جهة وطبيعة الموضوع من جهة أخرى نذكر أهمها:

1.5 الملاحظة بالمشاركة: وهي من أهم أدوات المنهج الوصفي و الذي تعتمدها أيضا الدراسات الإثنولوجية والأنثروبولوجية والإجتماعية، إذ يعتمد هذا النوع من الملاحظة على إشتراك الباحث في حياة الأفراد المعنيون بالدراسة، حيث يقوم بملاحظتهم في وقت يكونون منشغلين بنشاطاتهم، فهي محدودة إذ ترتبط بزمان ومكان النشاط، وتعرف بأنها:" تلك الملاحظة التي يقوم بها الباحث بمشاركة واعية منظمة، حسبما تسمح به الظروف في نشاطات الحياة الاجتماعية وفي اهتمامات الجماعات بهدف الحصول على بيانات تتعلق بالسلوك الاجتماعي وذلك عن طريق اتصال مباشر يجريه الباحث من خلال مواقف اجتماعية محددة"(عباد، 2006، 128).

2.5 المقابلة: هي "وسيلة حقلية ميدانية لإيضاح بعض النتائج التجريبية التي يكون معناها لازال مبهما وغامضا، ويلجأ إليها من أجل توضيح ما خفي من معنى" (قباري، ب.ت،

156)، وقد اعتمدنا على المقابلة غير الموجهة التي اعتمدها "كارل روجرس" 1942 ، "لأنها تشجع المبحوث على الإجابة الحرة والتلقائية والعفوية حيث تظهر فيها الاستجابة طبيعية وحرة، لكونها تهدف إلى معرفة الشكل بطريقة موضوعية" Blanchet, A., et Autres, 1985, (p09)

3.5 التصوير الفوتوغرافي وبالفيديو: استعنا بالكاميرا التصويرية لالتقاط بعض الصور عن المكان وعن عملية القطف لزهرة الكسابة، وكذا عن الشاطئ وتوغل النساء به، كما قمنا بتصوير حي لكل ما يتعلق بالطقس منذ قدوم النساء إلى محيط ضريح سيدي المجدوب حتى انتهائهن من الطقس.

4.5 التسجيل الصوتي: الهدف منه التقاط الحوارات التي دارت بيننا وبين مريدات طقس الكسابة.

6- عينة البحث ومواصفاتها:

وفقا لمتطلبات الدراسة ومتغيراتها وتماشيا مع أهدافها التي نسعى إلى تحقيقها، اعتمدنا في اختيارنا على العينة المكانية من مريدات طقس الكسابة يوم 21 مارس.

7- أهم المفاهيم المستخدمة في البحث :

1.7 التراث الشعبي: كلمة تراث من الفعل وَرَثَ يَرِثُ مِيرَاثَاً، أي انتقل إليه ما كان لأبويه من قبله فصار ميراثاً له، و" التراث كمصطلح حديث العهد نسبيًا في لسان العرب ... سوى بالإرتباط مع فعل ورث، فالتراث والإرث والورث لهم نفس المعنى .غير أن التراث يحمل أيضا، في العربية، معنى الإرث" (فريديريك ، 2006، ص 15) وهو ما ينتقل من عادات وتقاليد وعلوم وآداب وفنون ونحوها من جيل إلى جيل، نقول: "التراث الإنساني" التراث الأدبي، التراث الشعبي"، وهو يشمل كل الفنون والمأثورات الشعبية من شعر وغناء وموسيقى ومعتقدات شّعبية وقصص وحكايات وأمثال تجري على ألسنة العامة من الناس،

وعادات الزواج والمناسبات المختلفة وما تتضمنه من طرق موروثة في الأداء والأشكال ومن ألوان الرقص والألعاب والمهارات. والحفاظ على التراث هو حفاظ على القومية، والهوية الوطنية واللغة من التلف والضياع. نعني بمصطلح" التراث الشعبي "الموروث الحضاري والبقايا السلوكية و القولية التي انتقلت عبر التاريخ، و من بيئة إلى بيئة، و من مكان إلى مكان في ضمير الإنسان البقايا الأسطورية أو الموروث المثيولوجي القديم (خورشيد، 1991، ص 13).

2.7 العادات: جمعٌ لكلمة عادة، وهي من الفعل تعوّد يتعوّد تعويداً، ومعنى هذه الكلمة ومفهومها الدارج هو تلك الأشياء التي درج الناس على عملها أو القيام بها أو الاتصاف بها، وتكرَّرَ عملها حتى أصبحت شيئاً مألوفاً ومأنوساً، وهي نمطٌ من السلوك أو التصرُّف يُعتادُ حتى يُفعل تكراراً، " أي م يعود اليه تكرارا ومرارا "(دياب ، 1988، ص 273) ولا يجد المرء غرابة في هذه الأشياء لرؤيته لها مرات متعددة في مجتمعه وفي البيئة التي يعيش فيها.لذلك فعندما نسأل أفراد جماعة ما وخاصة في الجماعات البدائية المنعزلة عن تيار الحضارة أو الجماعات الريفية النائية والمنعزلة عن المدن لماذا يسلكون سلوكا تقليديا معينا ؟ فإنهم يجيبون بأن، " ذلك ما وجدنا عليه آباءنا " "أو لأن أجدادنا كانوا به متمسكين "بل أنهم كثيرًا ما يذهبون إلى أبعد من هذا فيفصحون عن أن مخالفة العادات تجلب الشؤم و النحس و الضرر على المخالف من الجماعة .

3.7 الأساطير: جمع لكلمة أسطورة والتي يمكن وصفها بانها تفسير أو قصة رمزية تروي حادثة غريبة، خارقة للطبيعة وتتميز الأسطورة بتناقلها، وانتشارها على نطاق واسع فهي إذن قصة خيالية أو مختلقة، ترتبط بالظواهر والكوارث الطبيعية وتفسيرها . (غيث ، 2000، ص 296) وتعتبر الأساطير حكايات مقدسة لشعب أو قبيلة بدائية وتراثا متوارثا ويطلق على هذه الأساطير أحلام اليقظة، كما أن هناك ثمة اتفاق حول عنصر القصص (كون الأسطورة حكاية لاعقلانية) يدور موضوعها حول قصة مجهولة لمؤلف مجهول أيضا،

أو أنها مركب من القصص البعض منها حقائق دون أدنى ريب والأخر خيال والتي يعتبرها الناس لأسباب مختلفة مظاهر للمعنى الداخلي لحياة البشرية .

4.7 الطقوس: جمع لكلمة طقس ،وقد شاع استخدام هذا المفهوم في كل من الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، تلاها بعده استعماله في التحليل النفسي.

و "الطقس هو تعبير رمزي عن الأفكار والمشاعر بواسطة الفعل"، ويجد الباحث في قواميس اللغة وغيرها أن هذه الكلمة تبدو بشكلين، أحدهما بمعنى الجذر طسق، وهذا ما يوجد في معاجم اللغة القديمة، والآخر بمعنى طقس، وغالبًا ما نجده في القواميس والمعاجم اللغوية الحديثة.

أما الطَقسْ: فهو عند بطرس البستاني في" محيط المحيط"، بالفتح، يلحنه البغاددة فيكسرون، وهو مكيال، أو ما يوضع من الخراج على الجربان، أو شبه ضريبة معلومة، وكأنه موّلد ، أومعرّب.وتشير لفظة "طقس" إلى الكيفية التي يتمّ بها أداء الأنشطة المقدّسة وتنظيمها في إطار احتفالي، ويشار بها في الديانة المسيحية إلى "النظام الذي تتمّ به الشعائر والاحتفالات الدينية المقدّسة" (المعجم الوسيط، 1987، باب "ط ق س").

ويعود الأصل اللغوي للفظة " **Rite**" في اللاتينية إلى " **Ritus**" ويعنى مجموع "الأنشطة والأفعال المنظمة التي تتخذها جماعة ما خلال احتفالاتها"(Larousse, Ed 19)

ويعني الطقس من خلال كلّ هذه التعريفات مجموعة من "القواعد" التي تنتظم بها ممارسات الجماعة، إمّا خلال أداء شعائرها التي تعدّها مقدّسة أو من خلال تنظيم أنشطتها الاجتماعية والرمزيّة وضبطها وفق "شعائر" منتظمة في الزمان والمكان. وقد بيّن "قوفمان" أنّ الناس كائنات طقوسية بكلّ امتياز ولا يمكنهم العيش معا إلاّ بواسطة طقوس تنظم مبادلاتهم الرمزية المختلفة. فالمجتمع مسرح يومي تُؤدّى فيه الأدوار منتظمة وفق طقوس تفاعلية لا تستوي الحياة الجماعية بدونها، وإذ تنهض على ضروب من المجازات المسرحية (métaphores théâtrales) التي تؤدى وفقها التفاعلات في الحياة اليومية (Goffman, Erving, 1973)

وتكسب فرادة الطقس أنّه يتمّ وفق مميّزات يمكن تحديدها في ثلاثة:

- **التقعيد:** بحيث يخضع الطقس لقواعد منتظمة متعارف عليها لدى أفراد الجماعة ،

- **التكرار:** حيث يعاد إنجاز الطقس في مناسبات تتتالى في أوقات مضبوطة من حياة الجماعة، وحسب "توزيعيّة"' زمنية **calendrier horaire**، مضبوطة،

- **الشحنة الرمزيّة:** التي تتّخذها، ممّا يعطي الممارسات دفقها وفعاليتها الرمزيّة الخاصّة. فالمميّز للممارسات الطقوسية هو تكرارها من قبل ممارسيها خلال أزمنة مضبوطة، لإحياء واقعة مضت أو احتفاء بحدث يعني للجماعة أو لأحد أفرادها رمزيّا الشيء الكثير.

5.7 المعتقد: يعرّف قاموس علم الاجتماع هذا المفهوم على انه:"حكم يتعلق بالواقع، يقبله الفرد باعتباره صحيحا. ويختلف المعتقد عن القيمة، فبينما نلاحظ أنّ المعتقد حكم صادق وأن القيمة تتصل بما يعتبره الفرد مرغوبا فيه أو مرغوبا عنه، فإن المعتقد حكم صادق واقعي. ويعتمد المعتقد على الملاحظة الإمبريقية، والمنطق والتقليد، والإيمان. هكذا، نستطيع أن نتحدث عن المعتقدات العلمية وغير العلمية. وتكوّن المعتقدات البناء الأساسي لتصور الفرد للعالم (بناؤه المعرفي)، والإطار الذي يشكل إدراكاته. وهو حكم يتناول الواقع ويركز على الأيمان" مع تمكنها في أعماق النفس البشرية الموجودة في كل مكان سواء عند الريفيين والحضر وعند الجهال كما عند الذين بلغو مرتبة عالية من العلم و الثقافة"(الجوهري، 1983، ص 41)

6.7 التعريف بطقس الكسابة:

أ- مفهوم الكسابة من الناحية اللغوية: الكسابة مشتقة من الفعل كسب، وجاء في (تاج العروس) أن كسبه يكسبه كسبا بالفتح، وكسبا بالكسر، وتكسب واكتسب: طلب الرزق. وأصله الجمع أو كسب: أصاب واكتسب تصرف.

وعرفه (لسان العرب) "لإبن منظور" كما يلي: الكَسْبُ طَلَبُ الرِّزْقِ، وأَصلُه الجمع كَسَبَ يَكْسِبُ كَسْباً وتَكَسَّبَ واكْتَسَب، قال سيبويه كَسَبَ أَصابَ واكْتَسَب تَصَرَّف واجْتَهَد. وجاء في الحديث، أن أَطْيَبُ ما يأْكلُ الرجلُ من كسْبه ووَلَدُه من كَسْبِه، قال" ابن الأَثير" إنما

جَعَلَ الوَلَد كَسْباً لأَن الوالدَ طَلَبه وسَعَى في تحصيله والكَسْبُ الطَّلَبُ والسَّعْيُ في طَلَبِ الرزق والمَعيشةِ. إذن فالكسب مرتبط بالسعي للحصول على رغبة ما تكون إما رزقا أو ولدا أو علما...إلخ (ابن منظور،(1)، 716-717).

أما في المعجم الوسيط فقد جاء معناه كما يلي: لأهله ِكَسْباً: طلب الرزق والمعيشة لهم. و. الشيء: جمعه. و. المال كَسْباً، وكِسْباً: رَبِحَه. فهو كاسب. (ج) كَسَبَة. وهو كَسَّاب، وكَسُوب. و. الإثم: تحمَّله. وفي التنزيل العزيز: {ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً}. و. فلاناً مالاً أو علماً أو غير ذلك: أناله.(أكْسَبَ) فلاناً مالاً أو علماً: أعانه على كسبه، أو جعله يكسبه (اكْتَسَبَ): تصرَّف واجتهد.إذن فالكسب لا يرتبط فقط بالرزق والولد فقط ولكن بالخطيئة أيضا.

كما يطلق على ما يتقاضاه الشخص لقاء عمل ونحوه من مال على سبيل الأجرة، أو الربح، أو الريع، أو الهبة ونحوها: كسب، ومنه ما رواه أصحاب السنن عن عائشة .رضي الله عنها.{أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وولده من كسبه } (سنن الترمذي – كتاب الأحكام –) والمراد ما يأكله الرجل من عائد عمله أو عائد عمل ولده.

إذن ، فالكسب في اللغة يطلق على السعي ، وعلى ما يجنيه الشخص من سعيه من رزق و مال و علم وولد .

وفي "قاموس لاروس" باللغة الفرنسية فإن فعل كسب يقابله إما acquérir والتي تعني الحصول على شيء، و إما .Devenir possesseur أو .Gagner, obtenir والذي يعني الحصول على شيء مرغوب فيه.

أما معنى acquire في قاموس المعاني. قاموس عربي انجليزي فقد جاء كما يلي:

acquire (Type: verb - Domain: non-thematic) : gain something by one's own ability, efforts or behaviour أي أَجْلَبَ – كَسَبَ أو أوْجَدَهُ مَطْلُوبَهُ.

ونستنتج من الناحية اللغوية والدلالية أن الكلمة جاءت بالإجماع ، بمعنى الكسب وإيجاد المطلوب، وعند مجتمع بحثنا بصيغة المبالغة أي الكسب غير المحدود، لمبتغى يبقى كامنا لدى الطالب، حيث يكون إما مالا أو ولدا أو رزقا...إلخ.

ب- المفهوم التاريخي لكلمة الكسابة: يعود أصل "الكسابة" إلى عقود طويلة،لم نتمكن من تحديد تاريخه بالضبط، غير أن جميع من تم سؤالهن، أجمعن أنها عادة قديمة، "الكسابة معروفة من عند الجدود" تقول إحدى المبحوثات. لكنها ارتبطت بالزواج، حيث درجت النساء اللاتي لم يسعف الحظ في زواج بناتهن أو إحدى أقاربهن إلى التجمع في مكان معين على بعد أمتار من ضريح الولي الصالح سيدي المجذوب في الـ21 مارس من كل سنة.

وتنسب "الكسابة" في الأصل إلى ثلاث روايات غير موحدة، فهناك روايات تقول إن "الجلتة" وتسمى في مناطق الوسط والشرق الجزائري "بالمرجة" والتي تعني لغة "المستنقع "- وهي المكان الذي يمارس فيه الطقس- هي من تعنيها تسمية "الكسابة"، وهناك من يقول إن "الكسابة " تعني الزهرة الصفراء التي يدور حولها الطقس، وهناك من يقول بأن العادة كلها أي منذ قطف الزهرة حتى العودة بها إلى البيت هي من تعني "الكسابة" .

ويرجع طقس "الكسابة" حسب المعتقد إلى زهرة صفراء اللون تنبت في محيط ضريح سيدي المجدوب، تقوم النساء الكبيرات في السن، إما الجدات أو الأمهات إلى قطفها بواسطة خاتم من ذهب يكون ملكا لمن يرغب في تزويجها، حيث تنزل هذه النسوة عند الفجر في سكون وتستر- السترة- أي السر والكتمان رغبة في قضاء الحاجة، و بعدا عن الإشاعة، واستحضار النية واجب عند قطفها بالرغبة في أن تتزوج صاحبة الخاتم حسب مبحوثاتنا، ثم تنزل النسوة إلى شاطئ سيدي المجدوب حيث بداية الشاطئ المحيطة بالصخور في شكل شبه دائري يطلق عليه أصحاب المكان "بال قلتة" وتقوم النسوة بالدخول والتوغل في الشاطئ حيث تبلل ثيابهن وصولا إلى المكان المحيط بالصخور على شكل مغارة، ولا يهم إن كان البحر هائجا أم هادئا، تقوم حينها بإشعال الشموع بالزغاريد ورمي الحناء والسكر في المكان المخصص تبركا وتكملة للطقس حتى يتم القبول، وتخرج النسوة بعدها من الشاطئ

قبل المرور بالولي الصالح سيدي المجدوب، ثم تلف النبتة في القطن مع قطعة سكر وحبة تمر وقليل من الحناء وتحفظ في صندوق الحلي، أو في جهاز الفتاة للبركة إلى العام المقبل، حيث تعود النسوة في نفس اليوم أي 21 مارس، لتحمل كل واحدة معها الزهرة بعد أن تستخرجها من الصندوق، حيث تعيدها إلى المكان الذي قطفتها منه في السنة الماضية، ويتم قطف واحدة أخرى بنفس الطقوس، ولكن لفتاة أخرى هذه المرة، وهكذا تتكرر العملية كل سنة....

ومع مرور السنين ،لم تعد هذه الظاهرة تمارس في الخفاء بعيدا عن الأنظار ومن قبل كبيرات السن أو الجدات تحديدا كما جرت عليه العادة في السابق، كما لم تعد تستقطب فئة الأميين وضعيفي الدخل فقط ، بل تعدت إلى النخبة المتعلمة وحتى إلى فئة الميسوري الحال، إذ أصبح الكسب هدف الجميع من طالبيه، لا يفصل بين المستويات العلمية، أو الاجتماعية أو الاقتصادية، غير أن الطقس أصبح يمارس بطريقة علنية من قبل الشابات والشباب ومن مختلف الأعمار، حيث راحت الفتيات هن من يقمن بتطبيق الطقس بدل النساء الكبيرات في السن، كما أنه لم يعد طقس قطفها مرتبطا بالزواج فقط، ولكن وجدنا في مبحوثاتنا من جاءت لقطفها بنية الحج أو الإنجاب وقد وجدنا حتى من جاءت بنية الحصول على السكن أو العمل. كما فضلت مبحوثات أخريات قطفها من أجل جلب الحظ، حيث قالت بعضهن: "يجب حملها في حقيبة اليد ليتبرك بها حاملها وتتيسر أموره"، وهكذا نجد أن الوضع تغير عند الممارسين لهذا الطقس الذي أصبح مطلبا لكل الذين يبحثون عن حل لمشاكلهم من خلال المخزون التراثي للمجتمع ومن الذاكرة الجماعية له، كما صار له صدى واسع وسط الناس، إذ يشهر لها في الإعلام المحلي عن طريق الإذاعة المحلية لمستغانم، وتكتب عنها الجرائد حتى اتسع صيتها وأصبح يقصدها المؤمنون بها ليس من مستغانم فقط ولكن حتى من الولايات المجاورة أيضا والشاهد على ذلك لوحات ترقيم السيارات للزائرين والزائرات التي شاهدناها في عين المكان.

وعند سؤالنا عن سبب وجود هذه العادة في مدينة مستغانم دون البلديات المجاورة لها فكانت الإجابة "إن الطقوس المرتبطة بهذا اليوم تخص "ال قلتة"، أي المكان الذي يطبق فيه الطقس والذي تدور حوله الأسطورة أو المعتقد، وذلك يعني أن الطقس لا يكتمل دون هذا المكان بالذات دون غيره،حيث وجدنا أن هذه الأسطورة تدور حولها حكايتان:

- تحكي الأسطورة الأولى" أن هناك امرأة عانسا لبست ثوب الزفاف وحين وصولها إلى ضريح الولي الصالح سيدي المجدوب، قامت بالصراخ والبكاء واتجهت صوب الشاطئ لتلقي بنفسها في المكان المسمى بال قلتة وغرقت هناك، ومنذ ذاك الحين ارتبطت هذه الحكاية بطلب الزواج، ولا تتم هذه العادة من دون أن تشعل الشموع وترمى الحناء والحليب في البحر في ذلك المكان بالذات" .

- وتحكي الأسطورة الثانية وهي التي ذكرها المسرحي "ولد عبد الرحمن كاكي" في إحدى مسرحياته "القراب والصالحين"،عن عروس جيء بها إلى الولي الصالح سيدي المجدوب للزيارة و للتبرك قبل أن تذهب إلى بيت زوجها، ولأنها كانت ترفض الزواج ، انسلت من الضريح لتقوم برمي نفسها في "القلتة" وهو المكان الذي أصبح مزارا حاليا."

واستحدثت الزائرات لهذا المكان في السنوات الأخيرة عادات لم تكن من قبل، حيث راحت بعضهن ترمى في "ال قلتة" اللحم النيئ وأشياء أخرى إلى جانب الحناء والسكر بعد إيقاد الشموع، والسبب في ذلك يعود حسب مبحوثاتنا إلى نذور الطالبين، فالمكان حسبهن مسكون "بجنية البحر"، ويقصدن بذلك روح الفتاة التي رمت بنفسها في ذلك المكان، وأن الجن يحب أكل اللحم النيئ، وأجابت الممارسات لهذا الطقس عن سؤالنا لماذا يرمى اللحم ولمن؟ "أنه عندما تتحقق الأمنيات تنفذ النذور وأن أسياد البحر هم من يستهلكون هذه النذور". ويقصد بأسياد البحر في هذا السياق هم الجن، كما تروي الأسطورة أيضا أنه عند عودة الصيادين ليلا من صيدهم، يلاحظون الشموع مشتعلة في ذلك المكان.

والملاحظ أن هناك تطابقا بين أسطورة موضوع بحثنا مع قصص شعبية وأساطير كثيرة في العالم العربي، ارتبطت بالمرأة التي تسكن البحر أو بجنية البحر هذه، إذ نجد في

المغرب الأقصى أسطورة "لالة عيشة قنديشة" أو "عيشة قنديشة مولات المرجة" أي (سيدة المستنقعات)، حيث عمد الكثير ممن عشق البحث في شخصيتها وتاريخها الربط بينها وبين «عشتار» آلهة الحب القديمة المقدسة، التي تسكن العيون والأنهار والبحار والتي اعتقد أنها ملكة السماء. وأسطورة "أم الدويس" في الخليج العربي، وأسطورة "النداهة" في مصر وأسطورة "ذات الفم الممزق" في اليابان.

وما يثير الاستغراب هو عنصر الشبه الذي تتقاسمه هذه الأساطير في تراث الشعوب ، من حيث نوع الحكاية التي تدور حول بطلة الأسطورة التي هي امرأة بالدرجة الأولى، و أنها تسكن البحر، و أنها كانت آدمية قبل أن تصبح جنية، ولعل تقارب بطلة أسطورتنا "الكسابة" بتلك المغربية "عيشة قنديشة" من حيث مكان تواجدها أي في المستنقع يجعلنا نتساءل عن خلفية هذا التطابق، هل هو محض الصدفة أم هو امتداد للأسطورة المغربية؟ يبقى فقط نوع الإختلاف في كون أن بطلة "الكسابة" مسالمة ولم يرو عنها أنها قاتلة كما في الأساطير السابقة الذكر، التي تتقاسم فيما بينها قواسم مشتركة مثل عنصر الإغواء الأنثوي وعنصر الرغبة في القتل والجنس وعنصر المكان الذي يكون عادة نائيا وخاليا.

ج- الهدف من هذا الطقس: ارتبطت ممارسة طقس "الكسابة" بشاطئ سيدي المجدوب، شرق مدينة مستغانم قديما، أملا في الحصول على زوج المستقبل ، بينما أصبحت اليوم تمارس أملا في أشياء كثيرة إلى جانب الرغبة في الزواج، كالسكن والنجاح الدراسي و طلب العمل....إلخ.

د- الرمزية في طقس الكسابة: إن الرمزية من منظور التحليل النفسي بمعناها الواسع "هي أسلوب من التصوير غير المباشر والمجازى لفكرة أو صراع أو رغبة لا واعية، بهذا المعنى يمكننا عد كل تكوين بديل رمزي".

(Americana 1966:161-162 Encyclopedia)

ووفقاً لهذا التعريف يجوز اعتبار أن المرأة الممارسة لطقس "الكسابة" يعد في حد ذاته إسقاط بعض التعابير الرمزية لرغبات ترتبط في ذهن الممارسة لهذا الطقس بذكريات

كامنة في اللا وعى لديها، كما قد تكون نتاج حتمية ترابطية تجسد حدثاً يرتبط بالرغبات الكامنة عندها. فالرمز هنا رغم تجليه عنصراً أبكماً لا واعياً. لا يستطيع المرء صياغة تداعياته ويحيله إلى حقل المرمز "حقل الهوامات" بتعبير فرويد، أو "حقل النماذج الأثرية لـ اللاوعى الجماعي" بتعبير يونغ.

ويرى فرويد في الرمز تمثيلاً لمواد مكبوتة لا شعورية في العادة، فلعل الممارسة الطقوسية تمثل من هذا المنطلق أموراً مكبوتة يتم التعبير عنها في التماهى والتسامي من خلال اللجوء إلى تطبيق كل الخطوات الخاصة بهذا الطقس عن طريق الحركات الوجدانية، التى ربما تشير إلى حالات نفسية فاعلة. يمكن ارجاعها إلى اللا وعى الجماعي، حسب "يونغ" الذي يعرف الرمز بوصفه "مصطلحاً أو اسماً أو صورةً يمكن أن تكون مألوفة في الحياة اليومية، وتتميز بمعنى ضمني إلى جانب معناها الواضح المباشر، وينطوي على أشياء مبهمة غير معروفة أو مخفية. فالمعنى الضمني يعنى أن للصورة أو الكلمة مظهراً لا واعياً يصعب تعريفه أو شرحه بدقة ... وحينما يحاول العقل استكشافه يقوده ذلك إلى أفكار خارج حدود العقل". (Jung,C.G.et al, 1978, 3-4)

ويؤكد يونج أيضا أن هناك إدراكا واعياً ولا واعياً للواقع. فالتعامل مع ظاهرة حقيقية (أصوات، منظر الخ.) يمكننا من ترجمة الظاهرة من عالم الواقع إلى عالم العقل، وتتحول في العقل إلى أحداث نفسية، طبيعتها النهائية غير معروفة طالما أن النفس لا تدرك مادتها النفسانية. بالتالي فإن كل تجربة تحتوى على عدد غير محدد من العوامل غير المعروفة (Jung,C.G. et al, 1978, 82-83).

هذا ويعد يونج النوع الأخير هذا مهماً للبناء العقلي، ويؤدي كبتها أو إهمالها إلى اختفاء طاقتها في اللاوعي، حيث تنشط وتزدهر وتتكثف بشدة لتجد تجلياً لها في الرغبات أو في الميول اللاواعية، التي قد تجد فرصة للتعبير عن نفسها أو الخمود. إن هذه الميول هي التى تشكل وجوداً دائماً وكامناً ومدمراً (الظل) للعقل الواعي. ولعل الممارسة الطقوسية "للكسابة" تمثل شكلاً من أشكال إتاحة الفرصة لتفريغ تلك الميول، وهو ما اصطلح "يونغ"

على تسميته "القنوات الانسيابية للطاقة energy canalization". وفي هذا الصدد يرى "كالفن وآخرون" أن الرمز بالنسبة لـ يونج هو أكثر من مجرد إخفاء أو خداع للرمز، فالرموز هي تحولات لدوافع بدائية، إنها قنوات انسيابية لتفريغ الغرائز اللبيدية بقيم روحية وثقافية. فالرقص، مثلاً، ليس بديلاً لنشاط جنسي بل يعنى شيئاً أكثر من ذلك (Calvin, et al., 1973: 115).

والملاحظ أن هذا الطقس أصبح لا محالة عادة لا يمكن الاستغناء عن ممارسته لدى المرأة المستغانمية، إذ تقول إحدى المبحوثات "*سبغت فينا فات الحال*"، بمعنى غرست فينا هذه العادة وفات الأوان، فأثناء محاولتنا الإجابة عن مدى استطاعة فهم هذا الطقس انطلاقا من غنى الظواهر المحيطة به، وتحاشيا الارتكان إلى الكليات المجردة أو السقوط في نسبية ثقافية، تماما كما فعل "غيرتز" (2006)، حين يقترح النظر إلى مفهوم الثقافة باعتباره "نمطا من المعاني المتجسدة في رموز تن اقلت تاريخيا، وهو نظام من المفهومات المتوارثة يعبر عنها بأشكال رمزية، وبواسطة هذه الأشكال يتواصل الناس، وبها يستديمون ويطورون معرفتهم حول الحياة ومواقفهم منها".(كليفورد، 2006، 224-225) يُستشف من هذا التعريف أهمية ودور الرموز الخارجية كحامل للمعاني المتناقلة والمتوارثة، على غرار الرموز الأخرى التي يوفرها علم الوراثة، حيث تندمج الشفرات في النظام العضوي الحي. ولما كانت هذه الأخيرة غير قادرة على إرشادنا في التعامل مع حالات ثقافية، يأتي دور الأنظمة الرمزية الخارجية، "فلكي نستطيع تأمين المعلومات الإضافية اللازمة لنا لتمكيننا من الفعل كنا مجبرين على الاعتماد أكثر فأكثر على المصادر الثقافية- ذخيرتنا التراكمية من الرموز ذات المعنى". (كليفورد، 2006، 158). هكذا يرى "غيرتز" أننا نفكر ونفهم من خلال انسجام بين حالات النماذج الرمزية وعملياتها في مواجهة حالات العالم الواسع وعملياته؛ فإذا ما دخلنا في مراسيم معينة مثلا ولم نكن نعرف القواعد الشعائرية المتبعة فستفقد كل تلك النشاطات معناها بالنسبة لنا. وسنحاول هنا أن نربط كل عنصر من العناصر الممارسة في هذه العادة برمزيته.

هـ- رموز طقس الكسابة: يدخل طقس الكسابة بما يعرف "بالموسم" والذي يعتبر فضاء طقوسيا مركبا من موضوع يشكل محور الاحتفال الطقوسي وإطار اجتماعي محدد، ثم زمكاني، وأخيرا أنشطة جماعية ذات طابع طقوسي (....) فزمن الموسم يحيل إلى زمن أصلي، قدسي، لذلك يتم داخل الموسم فعل التحيين وهو ما يجعل الفضاء الطقوسي للموسم متمفصلا بشكل كبير عن البعد الميتي.(زاهي، 2005، 52) ومن رموزه ما يلي:

- **الزمان:** يرجع توقيت ممارسة طقس الكسابة في الأصل إلى فجر و صباح أول يوم من أيام الربيع أي صباح كل 21 من مارس من كل سنة و تقول الكبيرات في السن أن ممارستها تحبذ قبل طلوع الشمس، غير أنه طرأت تعديلات في التوقيت إذ أصبحت الزائرات ينزلن إلى المكان المخصص مساء أول يوم من الربيع 21 مارس بين الظهر والعصر، غير أننا وجدنا ممارسته طول اليوم أي في الصباح والمساء أي إلى العصر، غير أن عدد القادمين في الظهيرة كان أكثر من عددهم في الصباح، والأهم في ذلك، أنه أصبح تقليدا سنويا يقام في نفس اليوم من كل سنة.

- **المكان:** شاطئ سيدي المجدوب، ويقع شرق مدينة مستغانم، وهو مرتبط بالولي الصالح سيدي المجدوب، المطل على البحر، بعتقد المستغانميون أنه حامي البحر والبر، حسب تعبير المبحوثين، و يعد هذا الضريح من الأماكن المفضلة التي تربط بطقس الزواج، ويأتي بعد الولي الصالح سيدي بلقاسم ومقره غرب مدينة مستغانم، من حيث تخصيصهما من قبل العامة من الناس ليكونا مزارا للعرسان قبل الدخول، وعلى اعتبار أن مستغانم هي بلد الأولياء بامتياز، فإن الأحاديث التي تتداول عن هذا الولي بالذات، تدور جلها حول قدرته على الإتيان بالكرامات، حيًا أو ميتًا، إلى جانب أمور أخرى، على اعتبار أن الخوارق جزء طبيعي من حياة هؤلاء " الأولياء "مما يشعر الجماهير بالعجز أمامهم واللجوء إليهم دائما، وهذا التنوع في أنواع الكرامات يتيح للأولياء فرصة يستطيعون من خلالها تفسير أي شيء و بأي شيء.

- **المرأة:** يقتصر تمثيل هذا الطقس في الأصل على المرأة الكبيرة في السن دون غيرها ، وغالبا ما تكون الجدة، إذ ما هو متعارف عليه أن الصغيرات في السن لا يحق لهن الخروج رفقتهن ، على اعتبار أن تنفيذ الطقس كان يقام فجرا إلى صباح كل يوم 21 مارس، أي قبل طلوع الشمس، وسرا،مما يعيق خروج البنت في هذا التوقيت بالذات، لتقوم الجدة مقام المعنية أو المعنيات لتنفيذ الطقس، عن طريق حمل خاتمها أو خواتمهن.

والملاحظ أن هناك تغييرات حدثت على هذا الطقس، فبعد أن كان مستقرا على فئة واحدة و هي النساء الكبيرات في السن، أصبحت الفتيات من مختلف الأعمار هي من تقوم بكل تفاصيله، بل وقد وجدنا أيضا كل الفئات العمرية من الجنس الآخر تشترك فيه، من أطفال ومراهقين وشباب وحتى الرجال، بعضهم جاء ليرافق قريباته ومنهم من جاء للفرجة، كما لاحظنا إشراك الأطفال في هذا الطقس حيث أنهم مقابل ثمن معين تدفعه المرأة التي قد تعجز عن الدخول إلى "القلتة"، أو لمن لا تريد الدخول في الماء و تبليل ثيابها، تنيب عنها أحد الأطفال من الذكور إلى القيام بالطقس بدلا عنها من أجل رمي الحناء والسكر والقيام بإشعال الشموع، كما وجدنا من حضر المكان رغبة في الكسب من خلال عرض خدماته كبيع الشموع والحناء وما إلى ذلك من المقتنيات التي تحتاجها المرأة في هذا الطقس، وهناك فئة أخرى جاءت لتحيي المكان بالطبول والتزمير من فرق عيساوة التي تزخر بها مدينة مستغانم لتعم الفرجة والفرحة معا.

- **الدعاء:** لا يتم طقس الكسابة دون تبييت النية والدعاء، ويدور عادة حسب مبتغى كل زائر، ويتنوع حسب العمر، تقول إحدى المبحوثات " *نطلب ربي يفتح عليا الزواج ،السكن، والحانوت اللي راني باغيتها، نطلب ربي والكسابة تعطيني... أنا راني مجربتها من بكري*"، وتقول أخرى "*أنا جارتي طلبتها واعطاتها سكنة وحانوت*".

وتقول أخرى "*أختي دارتها وتزوجت لعام لي فات، وأنا جيت نديرها هذا العام* ". وتصرح أخرى وهي تقسم "*والله أنا طلبتها واعطاتلي سكنى وصراولي حوايج ملاح (...) وهذا العام جبت جارتي وجيت*".

والملاحظ أن كل من قمنا باستجوابهن يربطن الدعاء وتحقيق المبتغيات بالكسابة، أي أنهن يعتقدن حق الإعتقاد أنها هي من تحقق المطالب والدعوات ولا يقمن بذكر أن من يجيب الدعاء إلا الله إلا نادرا، وهناك من أقسمت بأنها هي من تحقق الرغبات، وتقصد الكسابة. وتصر أغلبهن على استحضار النية "*لازم تصفي نيتك* "، "*ربي هو اللي يمد بصح حضري نيتك في الكسابة تعطيك بلا حساب* ". ومن الواضح أن طقس "الكسابة" من الطقوس التي لا تشكل نماذج لما يعتقد الناس فحسب، بل هي من النماذج لتحصيل الإيمان أثناء تمثيله؛ إنها تولد قناعة تطابق المفاهيم الدينية للواقع، حيث تقوم الأنشطة الرمزية "بصهر العالم المعيش بالعالم المتخيل".(كليفورد، 2006، 256). في هذا السياق يتطابق تساؤلنا مع تساءل طلال أسد حول مدى الإمكانية الوظيفية للطقوس في تكريس الاعتقاد الديني داخل وضع درامي حيث يبلغ الناس مستوى إيمانيا كما يتصورونه. (Talal, 1993, p49). وهو ما كرسته ممارسات هذا الطقس.

- **خاتم الذهب:** عبارة عن حلقة صماء أو مرصعة بالجواهر، وتدل رمزية الخاتم في كثير من الأديان إلى رمز روحي وديني. ولخاتم الزواج قدسية خاصة، فهو رمز لارتباط رجل وامرأة برباط شراكة مدى الحياة، ووجوده في إصبع اليد اليسرى تحديدا إشارة إلى الارتباط العاطفي، "*لأن هذا الإصبع متصل بوريد القلب مباشرة*"، كما تقول بعض المعتقدات. وتتجه الغالبية العظمى من الفتيات إلى أهمية قطف الزهرة الصفراء بالخاتم الذي برمزإلى الإرتباط .تقول إحدى المبحوثات "*لازم تنحيها بخاتمك تاع الذهب ولا ما تصدقلكش* " وتعني إلزامية قطف نبتة الكسابة بخاتم الذهب يكون ملكا للمرأة التي تقوم بعملية القطف، وإلا لن يتحقق المطلوب.

- **التمر:** هو أحد الثمار الشهيرة بقيمتها الغذائية العالية، وهى فاكهة صيفية تنتشر فى الوطن العربى، واعتمد العرب قديما في حياتهم اليومية عليها. فهو ليس نوعا من الأطعمة فقط لدى الجزائريين بل له مكانة ودور هام في حياتهم اليومية، إذ يعتبر أول طعامٍ يدخل جوف الطفل بعد حليب الأم في العقيقة، أول طعام يفطر عليه الصائم وخير سحور له، ويأخذ التمر رمزيته عند العروس التي يتم استقبالها به يوم قدومها إلى بيت زوجها مع الحليب، رمزا للطيبة والحلاوة ولعل ذلك ما يجعله حاضرا في طقس "الكسابة".

- **السكر:** هو مادةٌ حلوةٌ تستخرجُ غالباً من عصير القصب أو البنجر، وقَصَبُه يُعرف بقصب السُّكَّر، وهو نوعٌ من العنب ، أَبيضُ صادقُ الحلاوة .

وينال السكر سواء كان قطعا صغيرة أو على شكل بودرة أهمية بالغة في كل المناسبات الاجتماعية في الجزائر،إذ يعتبر في الخطوبة رمزا للمحبة والإخلاص الذي يكنهما الخطيب لخطيبته ، كبديل عن إكليل الورد في الثقافة الغربية، وفي الاستضافات أو الزيارات العائلية المناسبتية كالرجوع من الحج أو الختان أو الشفاء ... ، يصاحب كل ضيف معه قالبا أو أكثر من السكر(علبة المربعات الصغيرة تعرف بالقالب لكونها تستمد من قالب السكر الذي كان يعرف قديما والذي لا زالت بعض المناطق خاصة تلك القريبة من المغرب تحتفظ بجلبه ووضعه في المناسبات كالحنة أو الزواج)، كما تخلط حناء العروسة يوضع قليل من السكر مع الحليب في طبق كرمز للخير والصفاء وحلاوة الحياة الزوجية . كما أن العروسة عندما تصل إلى بيت الزوجية تقذف مكسرات من قطع السكر وتستقبل بالحليب والتمر فهذه العناصر مجتمعة تعبر في أغلبها على التفاؤل بالفرح والزواج على وجه الخصوص. وربما هذا ما يفسر استخدامها في هذا الطقس بالذات. كما أنه لا يرمز للفرح فقط فكما سبق الذكر ولكن نجده حاضرا حتى في طقوس العزاء فهو يرمز للصبر من خلاله بعبر عن التقرب من اهل المتوفي ومواساتهم . ولعل التفاؤل بالسكر عند المرأة أثناء ممارستها لهذا الطقس ينبئ عن طلب الأيام الحلوة و الصبر على حدوثها.

-**الحناء:** "*الحنة حنينة كيما يقولو* " تقول إحدى المبحوثات، فالحناء شجرة مباركة ليست كباقي الأشجار وهي ذات صلة وثيقة بالأفراح والمناسبات، وهي مقترنة بالفأل الحسن، وتستخدم في الطب الشعبي للعلاج من بعض الأمراض الجلدية ومن الصداع وأمراض أخرى، كما تستخدم في مجال التجميل إذ تخضب بها الأيدي والأرجل والشعر، كما تستخدم في الأعياد الدينية والمناسبات السعيدة.

ويعتقد أن لها مفعولا سحريا، حيث يجب أن تحاط حنة العريس أو العروس بحماية خاصة من الأعداء، الذين لو تمكنوا من الحصول على معجون الحناء ولو كان جزءا صغيرا جدا، فإنه بإمكانهم سحر العروسين وإيذائهما، فهي الفأل الحسن ببلوغ المراد عند المرأة الممارسة "للكسابة" وهو يوم قراءة الفاتحة والمسمى "بالحنة "الذي ينتهي بوضع الحناء على يد التي قرأت فاتحتها إعلانا بزواجها.

- **رمزية الماء:** الماء سر الوجود، الماء معجزة، الماء حركة... ليس هناك عنصر من الوجود قد اقترن بالرموز والمعاني مثلما اقترن بالماء، أغلب معاني الماء الرمزية حاضرة في طقس الكسابة، كون الماء قوة تطهيرية مثل النار تماما.

واحتل الماء في الدراسات الطبية التراثية مكانة عظيمة، وحين يُطْلَق لفظ الماء هنا فالمراد به الماء الطبيعي النازل من السماء، أو النابع من الأرض، عَذْبًا كان أو مالحًا أو معدنيًا، باردًا أو مثلوجًا، سائلاً أو جَمْداً أو ساخنًا، كَدِرًا أو صافيًا، ويتناول "إيلياد ثيمات" في الفصل الخامس من كتابه المعنون ب" الرمزية والتاريخ"، العماد والطوفان ورمزيات المياه، حيث يرى أن رمزية الماء هي "الأوسع والأشد تعقيدًا" إذ "ترمز المياه إلى مجموعة القوى الكامنة، وإلى جملة الإمكانات الكونية. إنها الينبوع والأصل." وهي "تسبق وجود كلِّ شكل، وتدعم كلَّ خلق". و"تتضمن رمزية الماء الدلالة على الموت وعلى الانبعاث على حدٍّ سواء" (ميرسيا، ب.ت، ص 197). والانحلال بالماء متبوع ب"حياة جديدة"، والغوص فيه "يعادل الاستعادة المؤقتة لحالة مبهمة، غير متميّزة المعالم، متبوعة بخلق جديد، وبحياة جديدة أو بلسان جديد". والمياه تدمّر الأشكال وتلغيها، و"تغسل الخطايا"؛ و"قدرها أن تسبق الخلق

وأن تقضي عليه". (ميرسيا، ب.ت، ص198). ويرى" ترتوليانوس" أن الماء كان، قبل سواه، "موطن الروح الإلهي، الموطن المختار والأثير من دون سائر العناصر... لقد أوكل إلى الماء، قبل غيره، أن يأتي بمخلوقات حية..." (ميرسيا، ب.ت، ص200). والنزول في الماء ومحاربة الغول البحري يؤلّفان "اختبارًا تنسيبيًّا يتم عند الانتماء إلى عقيدة ومذهب، وتقرّره أيضًا ديانات أخرى".

وهكذا ارتبط الماء في كل الثقافات والحضارات العريقة برمزية التطهير من الذنوب، وإعلان عن ولادة جديدة أحسن وأنبل من سابقتها.

فطقس "الكسابة" الذي يعتمد على عنصر الخيال، نجده يحمل تجليات الوعي بالطبيعة وتجاوزها، ليؤجج الحدث الذي يترجم علاقته بالوجود والأشياء، عبر صور مكثفة مليئة بالحركة وهي تؤسس عالما متميزا بمملكته المائية الرامزة (البحر الأزرق) و(الأرض المحاصرة بالماء) أي (الجلتة) في هذا الطقس، إذ أن حضور الصورة المائية التي تدور حولها أسطورة طقس الكسابة تشكل مرآة تعكس الحالة النفسية للمرأة الممارسة لها، حيث تأثير الفضاء الطبيعي على الفضاء الاجتماعي..

والملاحظ أن هذا الفضاء أي الماء المالح وبالأخص ماء البحر الذي يرتبط أيضا في المجتمع الجزائري بطقوس أخرى أهم ، نراها تلتقي مع رموز هذا الطقس وهي الشفرة التي تحل عقدة الزواج عند من تأخر زواجها و المتمثلة في فك "المربوط" والذي يعرف عند العامة ب" التثقاف أو التثقات" أي إبطال السحر أو ما يسمى ب "حل الرباط "، وتتم إما بالاستحمام بمياه السبع موجات، أو عن طريق الغطس كلية في ماء اليحر، حتى يتطهر الشخص وتزول عنه ما يحمله من "تعطيل" أو سحر، ولعل القيام بالدخول وسط الأمواج للوصول إلى "الجلتة" والتي تعتبر من شروط إتمام "مراسيم الكسابة" على أتم وجه، لا نراه إلا تفسيرا لذلك، حتى تكون الحاجة "مقضية" كما تقول المبحوثات.

و- الممارسة الطقوسية للكسابة سلوك تعبيري رمزي: التعبيرية الرمزية في اللغة الشائعة، عملية ترجمة جوهر معين بجوهر آخر، يكون طابعه قابلاً للملاحظة. وما يمكننا

استنتاجه هنا هو تعريف التعبير من منظور علم العادات والأخلاق، إذ تشير موسوعة علم النفس إلى أن النشاطات التعبيرية إيماءات، وطقوس، وأوضاع جسمية تسمى بالحركات التفريغية التى، وفق "رولان دوران"، "تمارس وظيفة الإشارة في إطار النشاطات الاجتماعية لجنس معين، وقد تُنظم هذه السلوكيات في أنظمة حقيقية تحمل دلالات متميزة، ويمكن بالتالي تحليلها رموزاً للاتصال ، من ثم يمكن عد السلوكيات التعبيرية وقائع اتصال غير كلامي، ويحلل الدور الذي تقوم به في مختلف أشكال تفاعل جماعة ما " (رولان وفرنسوا، 1997، 451-453). وما نستنتجه أن هذا الطقس لا يمارس إلا وسط الجماعة مما يحدد دور التواصل والتفاعل الجماعي.

وتحمل الممارسة التعبيرية لطقس "الكسابة" في طياتها أنماطاً مختلفة من الرمزية، كما يجوز عدها رموز اتصال غير ناطقة، فهناك قطف الزهرة الصفراء، والخاتم، والنزول إلى الشاطئ، والدخول في ماء البحر، والوصول إلى ال قلتة، وإشعال الشموع، والزغاريد، ورمي الحناء والسكر، ثم العودة إلى الشاطئ والخروج من الماء.

وما يهمنا هنا تحديداً التعبير الذي يتجلى عبر الحركات والسلوكات التي تتخذ من الجسد مسرحاً لها، وذلك من خلال ممارسة قطف النبتة والنزول إلى ال قلتة التي تشبه المغارة، مع العلم أن مكان النزول إليها ليس بالأمر السهل حيث الصخور المنتشرة بكثرة في محيطها كثيرا ما تسقط الفتيات في الماء، فتبلل ثيابهن ومنهن من تجرح. ويقصد بالتعبير الجسدي "مجموعة تقنيات الجسد التي تكون بشكل عام جماعية وتستند إلى فكرة النزول إلى الماء والوصول إلى المبتغى حتى تكتمل الأمنية. فالممارسة التعبيرية الحركية الرمزية والإحساس بكل ما تحويه الأجواء الطقوسية المادية المدعومة بالاعتقاد في هذه الممارسة وفاعليتها ويمكن عدها علائق نفس تحيل العوائق إلى وسائط تحرر، وإطلاق مخيلة إلى حدود لانهائية. فممارسة طقس الكسابة لها أشكالها التعبيرية المختلفة حيث نجد نماذج للتماهي والتوحد مع شخصية بطلة الأسطورة التي رمت بنفسها في البحر وتقمص دورها ...

أي على حد تعبير (جان لابلانش وبونتاليس ، 1997)، "التماهي هو عملية نفسية يمثل بواسطتها مظاهر أو خصائص أو صفات شخص آخر، ويتحول كلياً تبعاً لنموذجه".

كما يرتبط أيضا بمصطلح "التطهير" الذي يستعمل في أغلب لغات العالم بلفظه اليوناني (كاتارسيس) . كما يترجم أحيانا إلى مفاهيم تحمل معنى التطهير والتنقية أو التنظيف. والكلمة اليونانية Katharsis بالأساس من مفردات الطب وتعني التنقية والتطهير والتفريغ على المستوى الجسدي والعاطفي .

ز- الجسد في طقس الكسابة: يحضر الجسد الطقوسي داخل فضاء الموسم، بوصفه لحظة تحيينية للحظة قدسية ماضية، ولكن هذه اللحظة التحيينية ليست فعلا تكراريا مجانيا أو لحظة تذكيرية فقط، ولكنها نقطة متممة لسيرورة زمنية قدسية، إنها عودة مستقبلية باتجاه اللحظة الأولى، لأجل ذلك يتخذ التحيين شكلا محاكاتيا، وتتخذ المحاكاة طابعا اختلافيا.

إن الجسد الطقوسي جسد رمزي وتتضح رمزيته أكثر حينما نتبين أن فعل المحاكاة الممارس من طرف الجسد، إضافة إلى كونه فعل تحييني، هو أيضا فعل حكي، فهو جسد حاكي أو سارد، وطريقة حكيه مبنية على المحاكاة، إنه يحكي عبر وفي ومن خلا ل المحاكاة عن المسافة بين لحظة الأصل القدسية ولحظة التحيين التي يعيشها (زاهي، 2005، ص53).

ويذكر نور الدين زاهي 2005 مقولة "إيفان المايدا" (Ivan Almeida): "الجسد هو درجة الصفر في السيميوتيكا، وبفعل هذا التكثيف والتحويل والترميز يضعنا الجسد الطقوسي أمام وداخل زمان متجانس لكن متعايشة مكوناته، وينتزعنا من طمأنينة العقلنة ليرمي بنا في صلب ضياع المعنى والتفسير الأحادي" (زاهي، 2005، 54). فقيام الزائرات بهذا الطقس يحيلنا إلى ما لدور التقمص أو التماهي بالبطلة من أجل تحقيق الحلم والوصول إلى المبتغى.

8.خاتمة:

ما يمكن استنباطه من خلال نتائج هذه الدراسة وان كانت بسيطة، أن عادة الكسابة لا تخلو من تفكير الأفراد، ولا شك في أنّها ذات أهمية حيوية في الواقع المعاش لممارساتها، فهي لازالت تشكل قوة متسلطة وقاهرة تجرّ الأفراد خلفها، وتجعلهم يصبون فيها قوالب تصوراتهم الاجتماعية باستعدادهم لتصديق أي شيء يحكي أو يحدث عنها حتى وإن كان غير منطقي وغير عقلاني، مما صار أمرا مهما عمليا، يتم على أساسه التصرف، وذلك مهما بلغ المجتمع فيه من تقدم علمي أو تكنولوجي، فألف المتعلم وغير المتعلم، والممارس للواجبات الدينية وغير الممارس لها، و المحافظ على الأصالة والمواكب التقدم، التفكير في التأثير الخفي لطقس الكسابة في حياتهم اليومية، حيث أصبح الناس ميالين لإخفاء ما يخافون عليه من العين أو إنشاء أي عيب فيه، أو حتى درأه بالتماتم و الأحجبة؛ فالصراحة تغيب عندما يتعلق الأمر بالمشاريع الشخصية، المطامح،الزواج، الرزق، الأولاد، السكن وغير ذلك، فهي بذلك تخدم أغراضا اجتماعية محددة يتقيد بها الأفراد كالالتزام، ممّا يضفي بالنسبة إليهم وعيا لاعقلانيا اتجاه بعض ما يمكن تسميته بالإختلالات القائمة بين ما هو موجود وبين ما هو مرجو، وبين ما يمكن نعته بالعقبات والعوارض التي يصادفها الأفراد في واقعهم المعاش.

والملاحظ أن تواجد المرأة الأمية وحتى المتعلمة في هذا المكان يكون في أغلب الأحيان للسبب السابق ذكره، وقد تربطه بأسباب أخرى كعدم الإنجاب أو العمل...إلخ، ولعل ذلك يعود إلى كونها تفهم العالم كفضاء تحكمه قوى ما فوق طبيعية كالعين والجن والسحر, وتبقى فيه الأسباب الحقيقية لظاهرة ما مغيبة وغير معترف بها، وهو فهم له خلفية نفسية قوية تتحكم في تأويل المرأة للظواهر الطبيعية والاجتماعية، والدليل على ذلك هو لجوء المرأة المتعلمة إلى هذه التفسيرات والتأويلات المافوق طبيعية ، ففي حالات اليأس تضعف الأنا المثقفة وتترك المجال حرا أمام التفسيرات اللاعقلانية التي تكون غالبا كامنة في اللاوعي،

بل لأنها توارث كامن من أمها التي أشبعتها من التبريرات اللامنطقية كحل أسهل أمام العجز عن حل مشاكلها.

إذن فاللجوء إلى طقس "الكسابة" يعد البديل أو التعويض الحقيقي للفشل ، يتم بعد أن تفشل المرأة في تفسير الوضع الذي تعيشه تفسيرا واقعيا أو في حالة عدم قبوله عن طريق إنكاره رغم واقعية التفسير الذي توصل إليه. فهو هروب من واقع لا تستطيع تغييره بطرق واقعية فتلجأ إلى تغييره بطرق غير واقعية.

وأخيرا تجدر الإشارة إلى أن هذا البحث في هذا الموضوع لا زال بكرا ولم ينل حظه بعد من الاهتمام المنهجي والعلمي الجاد، وهذا العمل ما هو إلا دعوة للاهتمام وللفت الانتباه إلى عادات وظواهر اجتماعية سائدة ولكنها غير معروفة عند الكثير من الباحثين بمختلف تخصصاتهم.

المراجع:

- ابن منظور ، لسان العرب (1 / 716) دار صادر ، بيروت

- سنن الترمذي – كتاب الأحكام – باب ما جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده . سنن أبي داود، كتاب البيوع، باب في الرجل يأكل من مال ولده. سنن النسائي، كتاب البيوع، باب الحث على الكسب. سنن ابن ماجه، كتاب التجارات، باب الحث على المكاسب.

- المعجم الوسيط .(1987). الجزء الأول، ط 2، باب (ط ق س) ، بيروت: دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع.

- البستاني، بطرس.(2011). محيط المحيط،، باب (ط س ق) بيروت: مكتبة لبنان

- ميرسيا ، إيلياد .(ب ت). صور ورموز، ترجمة حسيب كاسوحة، وزارة الثقافة في دمشق . سلسلة "دراسات فكرية"، الرقم 36.

- اللحلح ، أحمد عبد الله ومصطفى، محمود أبو بكر .(2002). البحث العلمي، الأسكندرية : الدار الجامعية.

- دوران ، رولان ويارد ، فرنسوا .(1997). موسوعة علم النفس، المجلد الأول، بيروت : دار عويدات للنشر والطباعة.

- زاهي، نور الدين .(2005). المقدس الإسلامي، الدار البيضاء ، ط. 1، المغرب : دار توبقال للنشر.

- عباد، أحمد .(2006). مدخل لمنهجية البحث، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

- قباري، إسماعيل .(ب.ت). مناهج البحث في علم الاجتماع، الإسكندرية: منشأة المعارف.

- لابلانش، جان وبونتاليس، ج.ب .(1997). معجم مصطلحات التحليل النفسي، ط .3، ترجمة مصطفي حجازي، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

- خورشيد، فاروق .(1991). الجذور الشعبية للمسرح العربي، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- فريدريك، معتوق.(2006). مدخل إلى سوسيولوجيا التراث، ط.1، بيروت : دار الحداثة.

- الجوهري ، محمد .(1983). الدراسات العلمية للمعتقدات الشعبية، ج.1، القاهرة: دار الثقافة والنشر.

- غيث، محمد عاطف.(2000). قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية.

- دياب، فوزية .(1988). العادات والتقاليد الاجتماعية، بيروت: دار النهضة العربية.

- Larousse, Dictionnaire de la langue française, Ed 19

- Blanchet, A., & Autres.(1985). L'entretien dans les Sciences sociales. Paris: Bordas.

- Calvin, S. Hall., Vernon, J. & Nord, Y. (1973). A primer of Jungian Psychology, New York: New American Library.

- Goffman, E., .(1973). La Mise en scène de la vie quotidienne*, t. 1 La Présentation de soi*, éd Minuit, coll. « Le sens Commun ».

- Jung C.G., M-L von Franz, L. Joseph Henderson, Jolande Jacobi and Aniela Jaffé (eds.).(1978). Man and his Symbols, 17th Ed., U.S.A.: Dell Publishing Co. Inc.